

أسس نحوية و لغوية فى التفكير البلاغى عند عبد القاهر الجرجانى

الدكتور ابتسام أحمد حمدان*

الملخص

امتاز عبد القاهر الجرجانى بدقة الروية و صواب المنهج، مما ساعده على تناول قضية الإعجاز القرآنى من خلال بحثه فى النظم، بعد أن استقطب جميع جوانبه ليصبح نظرية لا تزال الدراسات تؤكد صحتها على مرّ العصور.

و لم يكن له ذلك إلا لأنه امتلك خبرةً لغويةً نحويةً قائمةً على رؤيةٍ صائبةٍ لقضايا لا تزال موضع بحث، فكانت هذه الخبرة أساساً سليماً، مهّد لمنهج سليم، مكّنه من التوصل إلى أعظم النتائج. و فى هذا البحث نحاول أن نعرض مواقفه من أهم هذه القضايا، التى قام على أساسها تفكيره البلاغى، و التى كانت ركائز دعمت بناء نظرية النظم، و تتمثل فى الأساس النحوى، و العلاقة العضوية بين اللغة و الفكر، و يقودنا هذا إلى رصد تصوّره للعلاقة بين اللغة و المجتمع، و من ثمّ نعرض لموقفه من قضية المواضع التى لا تزال موضع بحث عند الدارسين، لنقف أخيراً على ظاهرة التحول الدلالي التى تشكل ظاهرة مشتركة بين الدراسات الأدبية و الدراسات اللغوية، مما جعلها مضماراً حصباً للتجديد اللغوى.

كلمات مفتاحية: النظم، معاني النحو، العلاقات السياقية، قرائن التعليق، المواضع اللغوية، التحول الدلالي، المجاز.

المقدمة

ينتمي عبد القاهر الجرجانى إلى بيئة ثقافية شرقية، تتسم بكل السمات التى تميز المنهج الفكرى فى بيئة المتكلمين، من ميل نحو تداخل الأشياء و الدقة فى تتبع الجزئيات داخل نسيج يخضع للتوالد المنطقي المنتظم و هذا لا يخرج عن ركائز مذهب الأشعرى الذى ينتمي إلى هذه البيئة مما جعله أكثر جرئاً وراء الجمال، الذى يحكمه العقل و المنطق^١ و الحجّة و البرهان، و ليس أكثر حجّة و دلالة على جمالية اللغة و بيانها من الأدلة اللغوية و الدلالية فى توجهاتها المختلفة.

* أستاذ مشارك، فى قسم اللغة العربية و آدابها، جامعة تشرين، اللاذقية، سورية.

تاريخ الوصول: ١٠/٥/٨٩ تاريخ القبول: ٢٠/٨/٨٩

١ البدر اوى زهران عالم اللغة عبد القاهر الجرجانى ص ١٨ و ما بعدها.

أهمية البحث: تبرز أهمية البحث في أنه يسعى إلى التنقيب عن الخلفيات الفكرية اللغوية التي كانت عوامل هامة في تكامل نظرية النظم، وفي رسم المنهج اللغوي التحليلي الذي قامت على أساسه نظرة الجرجاني إلى الظواهر البلاغية.

منهج البحث: يقوم البحث على المنهج الوصفي الذي يتتبع الظاهرة اللغوية، ويحاول إبراز جوانبها، موضحاً طريقة عبد القاهر الجرجاني في تعامله معها، حتى غدت لديه مرتكزاً بني عليه تصوره لأبعاد الظاهرة البلاغية في سياق نظرية النظم.

المناقشة والنتائج: كانت بدايات عبد القاهر الجرجاني في البحث تنكئ على ذخيرة ثقافية واسعة في النحو واللغة، جعلته يدرك عيوب الدرس النحوي عند معاصريه، فوجد أن الشكلية والفصل بين اللفظ والمعنى قد أساء إلى الدرس الأدبي، ولاسيما بعد أن أهمل المعنى في دراسة الظاهرة اللغوية تحت تأثير سيطرة المنطق، فراح يؤكد أن الألفاظ خدم للمعاني وهذا بدوره قاده إلى الكشف عن الدور الذي تقوم به العلاقات السياقية فعمل على إبراز أهميتها و تعزيز دورها من خلال الأمثلة والشواهد ليخرج إلى (أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها، في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها)^١، وذلك لأنك لن (تجد أحداً يقول: هذه اللفظة فصيحة، إلا وهو يعتبر مكانها من النظم)^٢.

النظم والدرس النحوي

على الرغم من أن مصطلح النظم تناولته كتب الباحثين في الإعجاز القرآني لكنهم نادراً ما فصلوا القول فيه ليكونَ علماً على نظرية متكاملة مؤهلة لتكون أساساً في دراسة آية ظاهرة لغوية أو أدبية، بينما استطاع الجرجاني أن يتوصل إلى أبعاد دقيقة وعميقة، خرج منها إلى أن النظم الناجم عن مجموعة الروابط والعلاقات اللغوية، هو الذي يحدد معنى اللفظة، و يعطيها قيمتها و مزيتها وأن لا قيمة لها خارج السياق.

ومن هنا راح يحاول إبراز جوهر الدرس النحوي، فهو العلم الذي يبحث في وظائف الكلمة من خلال العلاقات السياقية اللغوية و هذا يعني أن وظيفة النحو ليست في البحث عن الخطأ و الصواب،

١ عبد القاهر الجرجاني دلائل الإعجاز تحقيق محمد رضوان الداية وفايز الداية ص ٤٠.

٢ المصدر السابق ص ٣٩.

وحماية اللغة من اللحن وحسب كما هو شائع^١؛ بل إن وظيفته إلى جانب هذا هي إيضاح المعاني و بيان الفروق اللغوية و المعنوية بين حالات الاستعمال اللغوي.

ومن هنا تبدو أهمية نظرية النظم من عدة جهات:

الأولى: أنها كانت أساساً منهجياً للكشف عن أسرار البلاغة و حجة دامغة على الإعجاز البلاغي للقرآن وهذا يستدعي أن تكون الأمثلة و الشواهد المدروسة مستمدة من النصوص التي تمثل قمة البلاغة في الثقافة العربية، سواء كانت هذه النصوص من القرآن الكريم، أو من الشعر و النثر، في أرفع مستوياتهما.

الثانية: أنها كانت تركز على مقتضيات علم النحو وعلى مراعاة أصوله و قوانينه مما جعلها معتمدة لتناول كل ضروب الكلام، بما فيها تلك التي لا تقصر الهدف من اللغة عند مرحلة استيعاب المعنى وإدراك الغرض و ذلك حين ربطت اللغة بظروف الحال والمقام ولاسيما المقام الاجتماعي، و بالمعنى بكل صورته.^٢

الثالثة: أنها أدت إلى النفاذ في صميم العلاقة بين المتكلم و الكلام الذي ينتجه فقد طرح الجرجاني هذه القضية مؤكداً أن نسبة الكلام إلى صاحبه، (لم تكن من حيث هو كالم و أوضاع لغة و لكن من حيث توخى فيها النظم الذي بينا أنه عبارة عن توخى معاني النحو في معاني الكلم، وذاك أن من شأن الإضافة الاختصاص، فهي تتناول الشيء من الجهة التي تخص منها بالمضاف إليه).^٣

هذا يعني أن إضافة الكلام إلى قائله تتضح من ارتباط الفاعل بفعله في التعبير اللغوي إذ لا يمس المادة الخام في أصلها و إنما يمس طريقة ممارسة المادة من حيث العمل و الصنعة، يقول: (و جملة الأمر أنه لا يكون ترتيب في شيء، حتى يكون هناك قصد إلى صورة و صنعة إن لم يُقدّم فيه ما قديم و لم يُؤخّر ما أُخِر، و بُدئَ بالذي نُبئَ به أو نُبئَ بالذي نُبئَ به لم تحصل لك تلك الصورة و تلك الصنعة).^٤

١ محمد عبد المطلب البلاغة والأسلوبية الهيئية المصرية العامة للكتاب ص ٣٥ - ٣٧.

تمام حسان الأصول ص ٢٩٦ - كتابه اللغة العربية معناها ومبناها - انظر: مصطفى حميدة نظام الربط والارتباط في

تركيب الجملة العربية ص ٢١.

٢ محمد عبد المطلب البلاغة والأسلوبية ص ٤٤ - تمام حسان اللغة العربية معناها ومبناها ص ٣٤٢، ٢٨ - وانظر

الأصول: تمام حسان ص ٣٤٨.

٣ عبدالقاهر الجرجاني دلائل الإعجاز ص ٢٥٣.

٤ المصدر السابق ص ٢٥٤.

ومن هنا استطاع الجرجاني أن يصل إلى مفهوم "الأسلوب" الذي يحمل بين أعطافه أطيايف العلاقة الحميمة بين المتكلم والكلام، ولاسيما حين يكون الجانب الوجداني أبين في الكلام، ففي أثناء حديثه عن ما سماه "الاحتذاء" حيث يعمد الشاعر إلى تقليد شاعر آخر يقول: (اعلم أن الاحتذاء عند الشعراء، وأهل العلم بالشعر وتقديره وتمييزه، أن يتدبّر الشاعر في معنى له وغرض أسلوبياً- والأسلوب الضرب من النظم والطريقة فيه- فيعمد شاعر آخر إلى ذلك الأسلوب فيجيء به في شعره.)^١

الرابعة: أنها كشفت عن علاقة المتكلم بالمتلقي من خلال شبكة العناصر المكونة للحدث الكلامي من متكلم و نص، ومقام يمثل صلة التواصل بين المتكلم والمخاطب، فالكلام لا تحدده مقاصد المتكلم وحسب، وإنما تتدخل مقاصد المتلقي لتوجه آلية الكلام، و تربطه بما يسمى المقام، إذ ينطلق الكلام من المتكلم ليتفاعل مع معطيات قد استقرت بين المتحاورين.^٢

الخامسة: إن المتتبع لجهود العلماء في سعيهم وراء أسباب الإعجاز في القرآن الكريم من بدايات الدرس اللغوي يجد أن الأساس الذي اتكأت عليه تلك الدراسات كان في الدرجة الأولى هو المتلقي، لأنهم الدارسين كان ملاحظة ارتباط النص القرآني بمتلقيه خاصة لِمَا كانوا يجدونه من حرج في تناول هذا النص بالاعتماد على مصدره^٣، وعندما بدأت الدراسات اللغوية تتباعد عن دائرة النص القرآني و تبحث في دواعي الإعجاز، ضعفت العناية بالمتلقي حتى جاء عبد القاهر الجرجاني في القرن الخامس الهجري، ليسلط الضوء على المتلقي مصوراً الانعكاسات النفسية للكلام على وجدانه وإدراكه، و ما يمكن أن يحدث عنده من أريحية، أو نشاط تحييلي متممقاً دور المعنى في كل ذلك من خلال تناوله لظواهر علمي المعاني والبيان.

ولكن، هل كان الجرجاني يريد أن يجدد النحو من خلال نظريته في النظم؟ و هل كان ربطه النظم بتوخي معاني النحو هو من قبيل إعادة الحياة إلى الدرس النحوي، الذي كان قد دخله الجمود، وضائق حدوده حتى أصبح رسداً لأواخر الكلمات، و تتبع حالات الإعراب؟^٤ و ما معنى مقولة

١ عبد القاهر الجرجاني دلائل الإعجاز ص ٣١٥.

٢ محمد عبدالمطلب البلاغة والأسلوبية ص ١٧٦.

٣ المصدر السابق ص ١٧٥.

٤ عبد القاهر الجرجاني دلائل الإعجاز ص ١٤.

الجرجاني فى مقدمة كتابه دلائل الإعجاز (هذا كلام وجيز يطلع به الناظر على أصول النحو جملة و كل ما به يكون النظم دفعة)؟^١

الحقيقة أن الجرجاني لم يكن همه تصحيح مسار الدرس النحوي الذي أصبح فى عصره (ضرباً من التكلف و باباً من التعسف و شيئاً لا يستند إلى أصل ولا يعتمد على عقل)^٢؛ بل كان همه قبل كل شيء بيان دلائل الإعجاز فوصل إلى أن توحي معاني النحو هو الأساس الذي يقوم عليه إعجاز نظم القرآن و هناك فرق بين النحو و توحي معاني النحو فالنحو يسعى إلى بيان الأسلوب الصحيح فى الكتابة، الذي يطابق أوضاع القواعد النحوية فيعرف الدارس للنحو الكيفية التي تتساقق فيها الكلمات، حتى تؤدي معنى يصل إلى عقل المتلقي، وهذا ليس هدف النظم، لأن النظم يقوم على توحي، أو اختيار الأساليب التي تؤدي غرض المتكلم فهو يختار من الأساليب الموضوعة فى قوانين النحو ما يمكن أن يعبر عن الأغراض، و المعاني المناسبة للمقام و الحال، ليصل بها إلى عقل المتلقي و وجدانه، و لو أراد الجرجاني تحديد النحو لآخذ طريقاً آخر فى تناول النصوص و لآتى بالبراهين و الأدلة التي تهدم ما أصله النحويون قبله كما أن كتبه فى النحو لم تنهج هذا النهج بل أكد فى كتابه "العوامل المائة" نظرية العامل التي اعتمدها النحويون.

إن (توحي معاني النحو) يهدف إلى رصد اللغة و الكلام فى أرقى استعمالهما مما جعل دراسة الجرجاني أقرب إلى الدرس الأدبي و الفني لذا كانت هذه الدراسة الجسر الذي ربط الدرس اللغوي بالنقد^٣ و كان علم المعاني هو العلم الذي يمكن أن نسميه بـ "النحو الإبداعي"^٤

الفرق بين النحو و معاني النحو عند الجرجاني

كانت التفرقة بين النحو و توحي معاني النحو واضحة فى ذهن الجرجاني، فمعاني النحو عنده هي قواعد ثابتة مستقرة لا تحتاج إلى إعادة نظر أما توحي هذه المعاني فى عملية النظم فهي مجال المزية و الحسن و مجال الإبداع و المنافسة لأنها تقوم على عملية الاختيار، و حسن الاستخدام وفق قوانين النحو و معانيه و هذه الغاية هي التي تميز بين النحو و النظم.

١ المصدر السابق ص ٣.

٢ المصدر السابق ص ١٤.

٣ البلاغة و الأسلوبية ص ٢٧٢ - وانظر: تمام حسان الأصول ص ٣٩١.

٤ المصدر السابق ص ١٩٢.

هذه العملية تحتاج من الناظم أن يمتلك الحس الأدبي، والذوق الفني إضافة إلى الخبرة الدقيقة في معاني النحو و الدربة في أوضاع اللغة، و هذا يتخطى هدف البحث في الخطأ و الصواب، يقول الجرجاني: (فإن قلت: أفليس هو كلاماً قد اطرده على الصواب و سلم من العيب؟ أ فما يكون في كثرة الصواب فضيلة؟ قيل: أمّا و الصواب كما ترى فلا، لأننا لسنا في ذكر تقويم اللسان و التحرز من اللحن، و زيغ الإعراب، فنعتدّ بهذا الصواب)^١

و يتابع الجرجاني مبيناً مجال الدراسة البلاغية قائلاً: (إنما نحن في أمور تدرّك بالفكر اللطيفة و دقائق يوصل إليها بثاقب الفهم... حتى إذا وازنت بين كلام و كلام، دريت كيف تصنع، فضممت إلى كل شكلٍ شكله و قابلته بما هو نظير له و ميزت ما الصنعة منه في لفظه مما هي منه في نظمه) آ، وهذا كما يرى الجرجاني إنما يعود إلى الذوق و الدربة، والذوق لا يمتلكه المتلقي إلا بالخبرة و الفهم الثاقب فنحن إزاء (أمور تدرّك بالفكرة اللطيفة و دقائق يوصل إليها بثاقب الفهم)^٢

و من هنا توجه اهتمام النحويين إلى ملاحقة الوظيفة النحوية داخل الجملة، من حيث الفاعلية والمفعولية... الخ، مما ضيق أفق الدراسة حتى انحصرت داخل نطاق الجملة، أو الجملتين، و هذا أدى بدوره إلى الانفصال بين اللفظ و المعنى في دراسة النص اللغوي و من ثم تحول البحث في اللغة إلى النظر في العلاقات المنطقية التي تربط بين الألفاظ، ليخرج الباحث بعلاقات أشبه بالقواعد الرياضية.

صحيح أن الجرجاني لم يخرج على قواعد النحو، بل كان يدعو إلى الالتزام بها لكنه وضع قاعدة واضحة لدورها في الكلام، وذلك حين رأى أن المتكلم باللغة يعرب عما (في نفسه و بينه و يوضح غرضه منه و يكشف اللبس عنه)^٣ و يكون ذلك بمراعاة الترتيب الخاص الذي يتبعه الإعراب وفق أحكام النحو.^٤

ويخلص الجرجاني إلى أن ضم الكلمات وفقاً لترتيب معين، مع تمام معناه و استقامته، هو الذي ينتج عنه ما يسمى (النحو)، وهو الذي تفسره نظرية العامل يقول: (فالكلام لا يستقيم، ولا تحصل منافعه التي هي الدلالات على المقاصد، إلا بمراعاة أحكام النحو فيه، من الإعراب و الترتيب الخاص)^٥، و

١ عبد القاهر الجرجاني دلائل الإعجاز ص ٧٤.

٢ المصدر السابق ص ٧٤.

٣ عبد القاهر الجرجاني دلائل الإعجاز ص ٧٤.

٤ عبد القاهر الجرجاني أسرار البلاغة تحقيق هـ. ريتز ص ٦٧.

٥ المصدر السابق ص ٦٥.

٦ عبد القاهر الجرجاني أسرار البلاغة ص ٦٥.

الترتيب الخاص هو الذي يترتب عليه الإعراب الذي هو العمل النحوي، و العمل هو القسم الثالث من أقسام نظرية العامل عند الجرجاني، أما القسمان الأول و الثاني فهما: العامل و المعمول، و من هنا يمكننا القول إن عبد القاهر لم يجدد النحو و إنما أعاد الحياة إلى الدرس النحوي، حين سلط الأضواء على أبعاد تحدد أبعاد الدرس النحوي، وهي:

١- معاني النحو، أي معاني البنية الشكلية للغة، والتي على أساسها يشكل المتكلم جملة البنية الشكلية التي تحدد المعنى النحوي، و ليس المعنى المعجمي.

٢- النظم و العلاقات السياقية حيث يتبع الإعراب الترتيب الخاص للكلمات.

٣- البنية الكلية المرتبطة فيما بينها لتشكيل كلاً واحداً بطريقة الارتباط و الربط.

ويرى الجرجاني أن معاني النحو هي معان جزئية تؤلف من تضامها معنى واحداً هو المفهوم، وهو ما يعرف بـ "غرض المتكلم"، وهذه إشارة لم يسبقه إليها أحد، يقول: (واعلم ان مثل واضع الكلام مثل من يأخذ قطعاً من الذهب أو الفضة فيذيب بعضها في بعض حتى تصير قطعة واحدة، وذلك أنك إذا قلت: "ضرب زيد عمراً يوم الجمعة ضرباً شديداً تأديماً له" فإنك تحصل من مجموع هذه الكلم كلها على مفهوم هو معنى واحد لا عدة معانٍ كما يتوهمه الناس)، وهو بهذا يرتقي بمفهوم البنية ليعطيها شكلاً جديداً في إطار الجملة، وهو ما يسمى المفهوم المتحصل من تفاعل المعاني الجزئية، الذي يمكن أن يصلح أساساً لمفهوم البنية الكلية للنص.

وعلى ذلك نستطيع القول إن عملية بناء التركيب اللغوي تقوم عنده على المراحل التالي:

آ- الاختيار: أي اختيار الوحدات من مخزونه اللغوي التي يمكن أن تفي بغرضه، بما يتناسب و المعاني المنبثقة عن الحالة الشعورية التي يعيشها^٢

ب- الترتيب: أي تحديد موقع كل واحدة لغوية وفق ما يقتضيه غرض المتكلم، وذلك بأن يُجري عملية تنظيم لما تمّ اختياره، على نحو يتلاءم فيه هذا التنظيم مع النسق الفكري و المعنوي و الشعوري الذي يتواتر على حال المتكلم، مراعيًا الرتب المحفوظة، و الرتب غير المحفوظة، وفقاً لترتيب المعاني في النفس^٣.

١ عبد القاهر الجرجاني دلائل الإعجاز ص ٢٨١.

٢ عبد السلام المسدي الأسلوبية و الأسلوب ص ٧١- و انظر: محمد عبد المطلب البلاغة العربية قراءة أخرى ص ١١٣.

٣ تمام حسان اللغة العربية معناها و مبناها ص ١٨٨- و انظر: عبد القاهر الجرجاني دلائل الإعجاز ص ٤٣، ١٣٢-١٣٣.

ج - التعليق: ويتم من خلال^١.

أ- القرائن اللفظية

ب- القرائن المعنوية والحالية

وهذا يدل على أن عملية البناء اللغوي عند الجرجاني لا تتم على نحو عشوائي، وإنما تخضع للقوانين الناظمة في اللغة، لذلك رفض الرأي الذي يقول بأن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلمات وإنما تظهر بالضم على طريقة مخصوصة على أهم يقصدون بالضم النطق باللفظة بعد اللفظة من غير اتصال يكون بين معنيهما، (لأنه لو جاز أن يكون مجرد ضم اللفظ إلى اللفظ تأثير في الفصاحة لكان ينبغي إذا قيل: (ضحك خرج) أن يحدث من ضم (خرج) إلى (ضحك) فصاحة وإذا بطل ذلك لم يبق إلا أن يكون المعنى في ضم الكلمة إلى الكلمة توحي معنى من معاني النحو فيما بينها)^٢.

وأكد الجرجاني عنصر الاختيار في البناء اللغوي حين اشترط أن يكون للفظ صفة (تستنبط بالفكر، ويستعان عليها بالرواية... ومن هنا لم يَجْزُ - إذا عُدَّ الوجوه التي تظهر بها المزية أن يُعدَّ فيها الإعراب وذلك أن العلم بالإعراب مشترك بين العرب كلهم، وليس هو مما يستنبط بالفكر ويستعان عليه بالرواية... وإنما الذي تقع الحاجة فيه إلى ذلك العلم بما يوجب الفاعلية للشيء، إذا كان إيجابها من طريق المجاز، كقوله تعالى (فما رحمت تجارتهم)... مما يجعل الشيء فيه فاعلاً على تأويل يَدِقِّ، و من طرقتلطفٍ وليس يكون هذا علماً بالإعراب، و لكن بالوصف الموجب للإعراب)^٣، يقول: (... فإنك إذا فكرت في الفعلين، يتأتى الاسمين تريد أن تخبر بأحدهما عن الشيء، أيهما أولى أن تخبر به عنه، و أشبه بغرضك مثل أن تنظر أيهما أمدح و أذم، و فكرت في الشئيين تريد أن تشبه الشيء بأحدهما أيهما أشبه به كنت فد فكرت في معاني أنفس الكلم إلا أن فكرت ذلك لم يكن إلا من بعد أن توخيت فيها من معاني النحو، وهو أن أردت جعل الاسم الذي فكرت فيه خبيراً عن شيء أردت فيه مدحاً أو ذماً أو تشبيهاً... ولم تجئ إلى فعل أو اسم ففكرت فيه فرداً، ومن غير أن كان لك قصد أن تجعله خبيراً أو ير خبر)^٤

١ تمام حسان الأصول ص ٣٨٩ - وانظر: العربية معناها ومبناها ص ١٨٨.

٢ عبد القاهر الجرجاني دلائل الإعجاز ص ٢٧١.

٣ المصدر السابق ص ٢٧١-٢٧٢.

٤ عبد القاهر الجرجاني دلائل الإعجاز ص ٢٨٠.

وعلى ذلك يمكننا القول إن الجرجاني اعتمد في بلورة نظريته في النظم على ركائز نحوية، إذ حول البنى البلاغية إلى بنى نحوية، عن طريق رصد العلاقات التي تربط بين عناصرها و هي علاقات نظامية خاصة قد تحافظ على نمطها المعتمد عند النحويين حيناً و قد تخرج عليها في أحيان كثيرة في صور من الانزياح، أو ما يسمى العدول، و ذلك تبعاً لما يتطلبه المعنى و لما تمليه ظروف الحال و المقام.

لا ريب أن هذا الإنجاز الكبير الذي تمَّ على يدي عبد القاهر، والذي تمثل في نظرية النظم كان يقوم أصلاً على فهم عميق لآلية الإنتاج الكلامي وعلى تمييز واضح للفروق الجوهرية بين اللغة و الكلام، إلا أننا نلمح في أثناء تناوله لهذه المسائل مفاهيم لغوية أخرى شكلت ركائز و منطلقات أساسية في فهم أبعاد الظواهر اللغوية و البلاغية عنده والتي أثبتت الدراسات المعاصرة صحتها و ثباتها على مرَّ الزمن، و أهم هذه المنطلقات:

١ - اللغة ظاهرة اجتماعية:

هذه الفكرة من أهم ما توصلت إليه الدراسات الحديثة في علم اللغة، إذ أثبتت أن اللغة لا تعيش إلا في ظل مجتمع إنساني، وهذا ما أراده "غليوم همبولدت" حين قال: (إن الإنسان واللغة قد خُلِقا معاً)، كما قام فرع من فروع هذا العلم بالكشف عن العلاقة بين اللغة و المجتمع، و هو ما يسمى: (علم اللغة الاجتماعي)^٢، (الذي يهتم بدراسة اللغة في سياقها الاجتماعي، و يدرس أيضاً الطرق التي تتغير بها البنية اللغوية استجابة لوظائفها الاجتماعية المختلفة).^٣

ولعل فكرة اجتماعية اللغة هي من أهم الأفكار التي طرحها العالم السويسري "فرديناند دسوسور"، الذي ألحَّ في تعريفه للغة على الجانب الاجتماعي إذ (يبدو هذا الطابع الاجتماعي واضحاً في تعابير كثيرة يلجأ إليها "دي سوسور" في كلامه عن اللغة: "اللغة هي واقع مكتسب و اصطلاحى" "اللغة هي مؤسسة اجتماعية"، "الرابط الاجتماعي الذي يكوّن اللغة")^٤.

ومما يؤكد السمة الاجتماعية للغة إجماع اللغويين على أن الوظيفة الأساسية للغة هي تحقيق التواصل والترابط بين أفراد المجتمع، وهذا يعني أن مهمة اللغة لا تقتصر على تحقيق التفاهم بين الناس، و إنما

١ جورج مونان تاريخ علم اللغة منذ نشأتها حتى القرن العشرين ترجمة بدر الدين القاسم ص ١٩٧.

٢ عاطف مذكور علم اللغة بين القديم والحديث ص ٤٣.

٣ عاطف مذكور علم اللغة بين القديم والحديث ص ٤٤.

٤ ميشال زكريا الألسنية مبادئها وأعلامها ص ٤٢.

تحقيق (المخالطة الاجتماعية والاتصال بين الناس، وهي التي تصبغ الفرد بالصبغة الاجتماعية)^١، و يرى جوزيف فندريس أن اللغة تكونت في أحضان المجتمع...؛ بل إنها الشرارة التي تصهر الأفراد في مجتمعاتهم فتقوي الروابط الاجتماعية لأنها النتيجة المباشرة للاحتكاك الاجتماعي^٢.

هذه الفكرة كان عبد القاهر الجرجاني قد أكدها في كتابه دلائل الإعجاز حيث قال: (إن الناس إنما يكلم بعضهم بعضاً ليعرف السامع غرض المتكلم و مقصوده)^٣، و يقول في موضع آخر: (كل ما شاكل ذلك مما يُعبر به عن فضل بعض القائلين على بعض، من حيث نطقوا و تكلموا و أحيروا السامعين عن الأغراض و المقاصد و راموا أن يعلموهم ما في نفوسهم و يكشفوا لهم عن ضمائر قلوبهم)^٤.

وعمقَ هذه الفكرة حين جعل البعد اللغوي للإنسان، هو الذي يحرر الإنسان من الطاقة الكامنة إلى الحركة فاللغة عنده كالقادح الذي يُخرج الطاقة الإنسانية من حيز القوة الكامنة إلى حيز الفعل، إذ إن (الكلام هو الذي يعطي العلوم منازلها و يبين مراتبها و يكشف عن صورها، و يجني صنوف ثمرها، و يدل على سراتها، و يبرز مكنون ضمائرها... فلولاها لم تكن لتتعدى فوائد العلم عالمه، و لا صحَّ من العاقل أن يفتقن أزهير العقل كمائمه و لتعطلت قوى الخواطر و الأفكار من معانيها... و لبقيت القلوب مقفلة على ودائعها، و المعاني مسجونة في موضعها)^٥.

فالكلام هو الذي يخرج خبايا النفس و الفكر إلى حيز الوجود، وهذا القول يذكرنا بقول الجاحظ:

(إن اللغة تترقى في منازل الوجود الإنساني و كمالاته، فتغدو صورة لتوازي مداركه في التدرج نحو استيعاب الكون و وجوداً، و عقلاً، فاستطاعة، فتصرفاً ففرويةً و هذا هو الذي يميز الإنسان عن الحيوان)^٦.

٢ - العلاقة بين اللغة و الفكر

- ١ عاطف مذكور علم اللغة بين القديم والحديث ص ١٥.
- ٢ جوزيف فندريس اللغة تعريب عبدالحميد الدواخلي و محمد القصاص ص ٣٥.
- ٣ عبدالقاهر الجرجاني دلائل الإعجاز ص ٣٥٧.
- ٤ عبدالقاهر الجرجاني دلائل الإعجاز ص ٣٨.
- ٥ عبدالقاهر الجرجاني اسرار البلاغة ص ١.
- ٦ أبو عثمان الجاحظ كتاب الحيوان تحقيق و شرح عبد السلام هارون ص ٧٢.

على الرغم من قدمها، فإن هذه الفكرة ظلت من الإشكاليات التي تصدرت الأبحاث اللغوية المعاصرة، إذ لا يزال هناك جدل حول وجود صلة بين اللغة والفكر، والرأي الشائع هو وجود تلك الصلة، فقد أكدها الفرنسي (بورنو) في كتابه "اللغة والفكر"، الذي ركز فيه على دراسة العلاقة القائمة بين اللغة والفكر، وفي رأيه أن الفكر سابق للغة، ويمكن أن يكون هناك تطابق كامل بين أحداث الفكر وأحداث اللغة^١.

إلا أن هناك من ردّ على هذا الرأي، وعدّ اللغة شيئاً خارجاً عن كيان الفكر، لأن العلاقة القائمة بين اللغة والعالم علاقة مباشرة لا تمر عبر الفكر، ويتمثل ذلك في العلاقة المباشرة بين الدال والمدلول، أي بين الرمز وذات الشيء نفسه و أن اللغة في تعبيراتها المختلفة تُصوّرُ تمام التصوير الأجزاء المختلفة في العالم.

وكان ابن جني قد عقد عدة فصول تتعلق بالصلة بين اللفظ من حيث أصواته التي يتركب منها، ونغمته وجرسه من جهة، ومعناه من جهة أخرى، كالبحث الذي ورد تحت عنوان: "تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني"، والبحث الآخر أيضاً الذي عنوانه "باب في إمساس الألفاظ أشباه المعاني"^٢.

مثل هذه الآراء بقيت غائمة لأنهما لم تحدد علاقة الصوت بالمعنى و لم تحدد ما إذا كان للغة ارتباط بالتصور العقلي... مما جعل فهم طبيعة العلاقة اللغوية غير واضحة، و قد أثبتت كثير من الدراسات اللغوية المعاصرة خطأ هذا التوجه، إذ لا نجد في أية لغة ذلك الانطباق التام بين أصوات الكلم و الأشياء التي تدل عليها، فإذا وُجِدَتْ بعض الألفاظ، فهذا لا يعني أن يكون ذلك قاعدة عامة تشمل جميع ألفاظ اللغة وعلى العكس من ذلك، فقد أثبتت الدراسات أن الكلمات رموز اتفاقية في دلالتها على معانيها، وأن العلاقة بين الدال والمدلول علاقة تواضعية و هذا يعني أن هذه الرموز ليس لها وجود مادي مباشر و إنما يتم ذلك عن طريق العقل، وعن طريق ربط الدال بالمدلول في عمليات عقلية ذهنية^٣.

هذه الفكرة، أي "التطابق التام بين اللغة و الفكر" وجدت لها صدى في الدراسات الغربية، إذ حاول اللغوي الفرنسي (برونو) - كما أشرنا - (إيجاد موازنة بين الكلمات والمفاهيم و بين الأخبار

١ ميشال زكريا/الألسنية ص ٧٦.

٢ ابن جني الخصائص تحقيق محمد علي النجار ص ١٤٥، ١٥٢.

٣ عاطف مذكور علم اللغة بين القديم والحديث ص ٢٢.

والتراكيب المعبرة عنها^١، إلا أن الواقع اللغوي يثبت أن التراكيب و الجمل لا تعبر بدقة عن أجزاء الفكر على نحو مطابق تماماً و إذا كانت اللغة توصل بعض أجزاء الفكر، أو جلها إلا أن عملية الإيصال تختلف من متكلم إلى آخر، وفقاً لقدرته على استغلال طاقات اللغة من جهة و وفقاً لقدرته على حسن الصياغة اللغوية لأفكاره من جهة ثانية و من هنا لا يمكن أن تكون اللغة مطابقة تماماً للفكر.

كل ذلك لا يعني انعدام العلاقة بين اللغة و الفكر، فلا بد من وجود رابطة من نوع خاص بينهما صحيح أن لكل منهما طبيعة خاصة، و لكن حين يجتمعان يكون توحدهما عضويًا، بمعنى أن الرابطة بينهما متفاعلة في نطاق التأثير و التأثر، على نحو يمتنع على الدارس أن يتناول كلاً منهما على حدة، فلا بد من دراسة اللغة عند دراسة الفكر و العكس صحيح، لأنهما يشكلان وحدة لا انفصام لها فلا توجد لغة من غير تفكير، و لا يوجد فكر من غير لغة.

إلا أن البحث في الوظيفة الأساسية للغة، يقودنا إلى الفهم الواضح للعلاقة بين اللغة و الفكر، إذ أقر دارسو اللغة أنها تكمن في (نقل الخبرة الإنسانية، والتعبير عن الفكر، واكتساب المعرفة، لأن الألفاظ - كما يقولون - حصون الفكر، وبالتالي فلا وجود للفكر بدون لغة)^٢.

وقد ذهب الفيلسوف الإنكليزي "جون لوك" إلى أبعد من ذلك حين أكد أن (اللغة تولد الفكر، وأن الناس ليطلبون في تكون أفكارهم عون اللغة... فاللغة تعدّ أمّ التفكير، وأن ما يسمى عمليات العقل ليس إلا من عمل اللغة)^٣

و لعل ابن حزم الأندلسي كان أكثر عمقاً في تناول هذه الظاهرة، فاللغة هي المفتاح الذي يلج به الفكر إلى العالم الخارجي، و (يقرر أن علاقة الإنسان بالأشياء هي علاقة معرفة ثم يردف أنه "لا سبيل إلى معرفة حقائق الأشياء إلا بتوسط اللفظ" وبذلك يتسنى أن يستنبط تطابق الحد التمييزي في اللغة مع مبدأ تميز الأشياء في العالم الخارجي، وهو ما يقود ابن حزم إلى اعتبار الحدث اللساني مجهراً تمييزياً يعكس انفصال الموجودات بعضها عن بعض، فتصبح اللغة صفيحة عاكسة لحدود الأشياء بما أنها ترسم مفاصل بعضها عن بعض)^٤.

١ ميشال زكريا الألسنية ٧٦.

٢ عاطف مدكور علم اللغة بين القديم والحديث ص ١٢.

٣ المصدر السابق.

٤ عبد السلام المسدي التفكير اللساني في الحضارة العربية ص ٥٣ - ٥٤.

وهذا ما أشار إليه "جون لوك" حين قال: (إن الكلمات هي علامات حسية على الأفكار و هذه الأفكار هي معناها المباشر)^١، ويعقب صاحب كتاب (فلسفة اللغة) على هذا الرأي، فيقول: (إن الأفكار لها وجود غير مستقل عن اللغة كما أن وظيفتها غير مستقلة عن اللغة أيضاً ولو أنّ كلاً منا أراد أن يحتفظ بأفكاره لاختفت اللغة)^٢، وهذا يعني أنه إذا فقدَ التعبير ضاع الفكر، فاللغة كما يقول المفكر الألماني "هوبولت" (هي عمل العقل، وهي الصوت المنطوق لذي نستطيع به أن نعبر عن الفكر)^٣، مما يؤكد أن اللغة كانت (الوسيلة التي يتكون بها التفكير...، وليس تنوع اللغات إلا دليلاً على تنوع العقليات)^٤.

لا ريب أن هذه الرؤية الواضحة للعلاقة بين اللغة والفكر، كان الجرجاني قد امتلكها حين قرر بناء نظريته في النظم، (فقد حلل علاقة الإنسان باللغة عبر التفكير فاستخلص أن الكلام ليس منه شيء يخرج عن عمل العقل إلا دلالة الألفاظ بالوضع المبتدأ)^٥، لذا نراه يؤكد (أنه لا يتأتى للنظام نظمه إلا بالفكر والروية)^٦؛ بل إنه راح في كل مرحلة من مراحل دراسته للجوانب اللغوية والبلاغية من نظرية النظم، يحاول أن يثبت ارتباط اللغة والكلام بفكر المتكلم من جهة، وبفكر المتلقي من جهة ثانية فاللغة عنده عملية عقلية نفسية، توجهها مقاصد المتكلم، و أغراضه، و أفكاره التي تتمثل في ترتيب المعاني في النفس أولاً، ثم يتبعها ترتيب الكلم على نحو خاص، يقول: (... ليس الغرض بنظم الكلم أن توالى ألفاظها في النطق؛ بل أن تناسقت دلالتها، و تلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل... ودليل آخر وهو أنه لو كان القصد بالنظم إلى اللفظ نفسه، دون أن يكون الغرض ترتيب المعاني في النفس، ثم النطق بالألفاظ على حذوها، لكان ينبغي أن لا يختلف حال اثنين في العلم بحسن النظم، أو غير الحسن فيه... أوضح من هذا كله، وهو أن هذا النظم الذي يتوآصفه البلاغاء و تتفاضل مراتب البلاغة من أجله، صنعة يُستعان عليها بالفكرة لا محالة و إذا كانت مما يُستعان عليه بالفكرة، و يستخرج بالروية، فينبغي أن ينظر في الفكر بماذا تلبس.)^٧

١ عبده الراجحي فقه اللغة في الكتب العربية ص ٧٢.

٢ المصدر السابق ص ٧٢.

٣ عاطف مذكور علم اللغة بين القديم والحديث ص ١٢.

٤ جورج مونان تاريخ علم اللغة ص ١٩٧.

٥ عبدالسلام المسدي التفكير اللساني في الحضارة العربية ص ١٧٨.

٦ عبدالقاهر الجرجاني دلائل الإعجاز ص ٢٨٣- وانظر: محمد عبد المطلب البلاغة العربية قراءة أخرى ص ١١٣.

٧ عبدالقاهر الجرجاني دلائل الإعجاز ص ٤٣.

ويوضح الجرجاني نواحي الخطأ في تصور بعض الدارسين للعلاقة بين اللغة والفكر، فيقول (فترى الرجل منهم يعلم أن الإنسان لا يستطيع أن يجيء بالألفاظ مرتبة إلا من بعد أن يفكر في المعاني، ويرتبها في نفسه على ما أعلمناك، ثم تفتشه فتراه لا يعرف الأمر بحقيقته، وتراه ينظر إلى حال السامع فإذا رأى المعاني لا تقع مرتبة في نفسه، إلا من بعد أن تقع الألفاظ مرتبة في سمعه، نسي حال نفسه، واعتبر حال من يسمع منه)^١

وعلى هذا النحو كان الجرجاني في كل فرصة يسعى إلى إبراز دور الفكر في توجيه نظم الكلام و ما بحثه في قضية اللفظ و المعنى و توحيدُه بينهما، إلا صورة من صور مفهومه للعلاقة بين اللغة و الفكر بل إنه ذهب أبعد مما نجده في الدراسات اللغوية المعاصرة حين ربط اللغة ليس بفكر المتكلم و حسب بل جعلها تمتد إلى فكر المتلقي أيضاً فكل من المتكلم و المتلقي لا يلتقيان إلا في ظل التوجه الفكري بوصفه جسراً بينهما و يمتد تأثيره بالتأكيد على الرسالة اللغوية التي قد تنطلق بدلالاتها الإيجابية إلى نطاق أوسع من معاني العناصر المشكّلة للنص ولاسيما إذا كانت تنضوي تحت لواء الفن الأدبي و البلاغي، يقول الجرجاني: (فإذا رأيت البصير بجواهر الكلام يستحسن شعراً، أو يستجيد نثراً، ثم يجعل الثناء عليه من حيث اللفظ... فاعلم أنه ليسُينبتك عن أحوالٍ ترجع إلى أجراس الحروف وإلى ظاهر الوضع اللغوي؛ بل أمر يقع من المرء في فؤاده و فضلٍ يقنطحه العقل من زناده).^٢

ويقول في موضع آخر: (ومعلوم أن الفكر من الإنسان يكون في أن يجبر عن شيء بشيء، أو يصف شيئاً بشيء، أو يضيف شيئاً إلى شيء، أو يشرك شيئاً في حكم شيء، أو يخرج شيئاً من حكمٍ قد سبق منه لشيء، أو يجعل وجود شيء شرطاً في وجود شيء، وعلى هذا السبيل، وهذا كله فكرٌ في أمورٍ معلومة معقولة زائدة على اللفظ)^٣، (فإنما أرادوا بقولهم: ما كان معناه إلى قلبك أسبق من لفظه سمعك أن يجتهد المتكلم في ترتيب اللفظ، و تهذيبه و صيانتها من كل ما أخلّ بالدلالة و عاق دون الإبانة... وإن توقفت في حاجتك أيها السامع للمعنى إلى الفكر في تحصيله فهل تشك في أن الشاعر الذي أداه إليك... قد تحمل فيه المشقة الشديدة... و معلوم أن الشيء إذا علم أنه مُئْتَل في أصله إلا بعد

١ المصدر السابق ص ٣٠٦.

٢ عبد القاهر الجرجاني اسرار البلاغة ص ٤.

٣ عبد القاهر الجرجاني دلائل الإعجاز ص ٢٨٣.

التعب... كان للعلم بذلك من أمره من الدعاء إلى تعظيمه^١، و لعل تناوله لقضية اللفظ و المعنى و توحيديه بينهما كان من أوضح الأدلة على فهمه الثاقب للعلاقة بين اللفظ و الفكر.

لقد نجح الجرجاني في تحديد موقع العقل من قضية خروج الكلام من الاعتباط الابتدائي إلى التلازم الصائر، حين حلل علاقة الإنسان باللغة عبر التفكير و انتهى إلى أن الكلام لا يخرج منه شيء عن عمل العقل إلا دلالة الألفاظ بالوضع المبتدأ فبمجرد ضم كلمة إلى أخرى تحصل بنية مفيدة تقوم على الإسناد و تبقى المشكلة مطروحة على صعيد نظرية المعرفة الخالصة و التي مفادها: (ما الذي يكمن وراء التحام جزأين حتى يصير منها كل دلالي لا يتجرأ؟ و ليس من جواب عند الجرجاني إلا الرجوع إلى العقل)^٢.

و كي يدلل على ذلك يلجأ إلى تفكيك الحدث الكلامي إلى عناصره التواصلية، فيبرز منها خاصة:

١- المخبر: هو الفاعل للكلام و الصانع لنتيجته، لكونه واضع الفائدة.

٢- المخبر عنه: و هو مدار الحديث و مستدعي الفائدة.

٣- المخبر به: هو مضمون الحديث و فيه دعوة الفائدة.

٤- الموضوع له الخير: و هو متلقي الفائدة.^٣

فإذا تمت عملية التواصل بين المخبر و الذي وضع له الخبر، فإنها تكون قد سارت طبقاً للانتظام الذي تقتضيه و يجيزه مواضع اللغة و سير حركتها في ظل هيمنة العقل، بوصفه منظم اللغة الذي يعمل على إنشاء عنصر جديد هو انصهار لكل عناصر الكلام التواصلية، وهذا يعني أنه لا يكون لهذه العناصر رصف و تنسيق وفق ما تقتضيه معاني النحو، إلا في ظل رقابة العقل، فله الحظ الأوفر في حياكة نسيج الكلام، وهو المنظم الذي يوجه عمليات الانصهار اللغوي لإنتاج عنصر جديد يتمثل في "العلاقة"، أو "الحكم" الذي يحقق التواصل في الخطاب الإنساني، و بذلك يلتقي محتوى الكلام مع صانعه و متلقيه في تقاطع، لا يمثل نقطته المركزية إلا حضور العقل بوصفه رصيماً مشتركاً بين المرسل و المرسل إليه، وبالتالي لا بد أن يلقي العقل بظلاله على الرسالة اللغوية، لتصبح صورة من صور الفكر الخالص.^٤، يقول الجرجاني:

١ عبد القاهر الجرجاني اسرار البلاغة ص ١٣٢ - ١٣٣.

٢ عبد السلام المسدي التفكير اللساني في الحضارة العربية ص ١٧٨.

٣ المصدر السابق ص ١٧٩.

٤ المصدر السابق.

(و إذا قد ثبت أن الخبر و سائر معاني الكلام، معان ينشئها الإنسان في نفسه و يصرفها في فكره و يناجي بها قلبه و يرجع فيها إليه فاعلم أن الفائدة في العلم بها واقعة من المنشئ لها صادرة عن القاصد إليها، وإذا قلت في الفعل إنه موضوع للخبر، لم يكن المعنى فيه أنه موضوع لأن يُعلم به الخبر في نفسه و جنسه و من أصله و ما هو، ولكن المعنى أنه موضوع حتى إذا ضمته إلى اسم عَقِلَ منه و من الاسم أن الحكم بالمعنى الذي اشتق ذلك الفعل منه على مسمى ذلك الاسم واقع منك أيها المتكلم)^١

وقد جاءت الدراسات الحديثة لتؤيد هذه الفكرة، من خلال توصيف دقيق لما يجري في إتمام عملية الإدراك اللغوي مما وضح دور الفكر و العقل في هذه العملية من خلال فهم آلية الربط بين الدال و المدلول و من خلال ملاحظة دور العقل في آلية الاقتران بين الإحساس بالصوت و الإحساس بالصورة من جهة و بينهما و بين أي نوع من أنواع الأحاسيس الأخرى و يكون الصوت في كل ذلك دليلاً على ما اقترن به من أحاسيس (فإذا كان هذا الصوت بعينه في الواقع مقروناً بهذه الصورة بعينها في الواقع ثم غابت الصورة و قام الصوت تولت أعصاب الدماغ المختصة توليد تلك الصورة الغائبة)^٢.

وقد يكون للفظ دلالة محدودة عند شخص، أو عدة أفراد متصلين بعلاقات اجتماعية أو غير متصلين فهذا اللفظ يشكل علاقة لغوية فردية، وكي يشكل علاقة لغوية عامة، ينبغي أن يولد عند عامة الجماعة التي تتداوله صوراً و أحاسيس، و تجارب أخرى مشتركة بين غالب أبناء الجماعة اللغوية^٣.

٣- اللغة تنضوي تحت لواء المواضعة

علاقة الدال بالمدلول من القضايا الجدلية التي شغلت حيزاً لا بأس به من الدرس اللغوي منذ عهد بعيد سواء في الدراسات العربية القديمة أو المعاصرة وكذلك كان حالها في الدراسات اللغوية الغربية إذ تعد من أهم القضايا التي تناولها (علم اللغة).

١ عبد القاهر الجرجاني دلائل الإعجاز ص ٣٦٤.

٢ نعيم علوية نحو الصوت ونحو المعنى ص ٧.

٣ المصدر السابق.

وقد طرحت نظريات كثيرة تتراوح بين الاعتقاد بالتطابق الكلي بين اللفظ و مدلوله، من حيث تمثيله للمدلول بجرس حروفه و دلالاته، و بين الفصل التام بين اللفظ و مدلوله إذ يخضع اللفظ لما يسمى (المواضعة)، وذلك بأن يطلق اللفظ على مسمى ما بالتوافق بين أعضاء الجماعة اللغوية^١.

هذه القضية تناولها الجرجاني في ظل الأصول الاعتزالية التي انبثقت عنها أبعاد فكره الأشعري، والتي تدين للعقل في التناول المعرفي مؤيداً في ذلك كثيراً ممن سبقه في الأخذ بها فإذا كانت هناك بعض الكلمات التي تحمل ظلالاً من طبيعة الماهية، فإنها لا تستطيع أن تطابق الواقع تطابقاً كاملاً، كما أن أكثر اللغة قائم على الاتفاق و المواضعة لذا راح الجرجاني يلح على أن اقتران أي لفظ بمعناه، (لما كان في منشئه تواطؤاً محضاً، فإنه لا يقوم بين الدال و المدلول من الاقتضاء ما يمنع تصور أي دال آخر لنفس المدلول) وعلى ذلك فإنه لا يمنع أن تتصور أي مدلول لأي دال كان، يقول الجرجاني: (إن نظم الحروف هو تواليها في النطق فقط و ليس نظمها بمقتضى عن معنى و لا الناظم لها بمقتضى في ذلك رسماً من العقل اقتضى أن يتحرى في نظمه لها ما تحراه فلو أن واضع اللغة كان قد قال "ربض" مكان "ضرب" لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد)^٢.

ويشير في موضع آخر إلى استحالة أن تحمل الألفاظ دلالاتها في أنفسها، فاللفظ في ذاته يحمل دلالاته الواقعية يقول: (اعلم أن هاهنا أصلاً أنت ترى الناس فيه في صورة من يعرف من جانب و ينكر من آخر وهو أن الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها ولكن لأن يُضم بعضها إلى بعض فيُعرف فيما بينها فوائد، وهذا علم شريف وأصل عظيم، والدليل على ذلك أننا إن زعمنا أن الألفاظ التي هي أوضاع اللغة إنما وضعت ليُعرف بها معانيها في أنفسها لأدى ذلك إلى ما لا يشك عاقل في استحالته... و حتى لو لم يكونوا قد وضعوا الحروف، لكننا نجعل معانيها فلا نعقل نفيًا ولا نهيًا ولا استفهامًا ولا استثناءً و كيف و المواضعة لا تكون ولا تتصور إلا على معلوم فمحال أن يوضع اسم أو غير اسم لغير معلوم و لأن المواضعة كالإشارة)^٣.

١ علي عبد الواحد وافي نشأة اللغة عند الإنسان والطفل ص ٣٠ وما بعدها.

٢ عبدالسلام المسدى التفكير اللساني في الحضارة العربية ص ١١٣.

٣ عبدالقاهر الجرجاني دلائل الإعجاز ص ٤٢.

٤ عبدالقاهر الجرجاني دلائل الإعجاز ص ٣٦٢-٣٦٣.

موقف الجرجاني هذا تؤيده أشهر الدراسات اللغوية المعاصرة، فقد عرض "دوسور" اعتراضين بمنع الأخذ بمبدأ ارتباط أصوات الكلمة بالمهية^١

الاعتراض الأول: أن الكلمات المحاكية للأصوات تدل على أن الدالة ليست دائماً جزافية أي أن مبانيتها الصوتية توحى أحياناً بارتباط معين بين اللفظ والمعنى، إلا أن عدد هذه الكلمات كان قليلاً نسبة إلى ألفاظ اللغة كما أنها لا تمثل جزءاً هاماً في المعجم اللغوي، إضافة إلى أنها لا تمثل عناصر عضوية في داخل النظام الصوتي كما يرى أن الكثير منها يمكن أن يكون قد حدث بعد تطورات صوتية، تضعف من تصور هذه الكلمات مجرد محاكاة لأصوات طبيعية.

الاعتراض الثاني: أنه لو كانت الكلمات تحمل دلالاتها المطابقة للواقع، كالصيحات الانفعالية أو الكلمات التي تمثل دلالاتها، لوجدنا هذه الألفاظ متماثلة في كل لغات العالم، إلا أن المقارنة بين هذه الصيحات في لغتين، تدل على التفاوت التي تعبر به كل منهما على المواقف نفسها^٢.

وبرهن الجرجاني على صحة مذهبه، حين أكد أنه لما كانت اللغة تقوم على المواضع و الاتفاق فالعلاقة بين اللغة و العقل إنما تقوم على تزييل الأدلة عن طريق المقارنة بين الدال و المدلول لتعقد بينهما نوعاً من العلاقة العقلانية أي أن تحديد معنى الكلمة يكون عن طريق الربط العقلي بين الدال و المدلول، وهذا يعني أن تحديد معنى الكلام يكون أيضاً بدلالة القرائن والأدلة، وهذا يستدعي بالضرورة وجود العقل، لأن مبدأ "أن اللغة قائمة على المواضع" عملية تستدعي حضور العقل، وهو حضور مزدوج و توضيح ذلك أن العقل عاجز عن إيجاد رابطة تربط بين الدال و المدلول بروابط مباشرة، مما يجعل الدال كالصورة المطابقة للمدلول لذا كانت هذه الرابطة اعتباطية رمزية. يقول الجرجاني: (ومما يجب ضبطه في هذا الباب أن كل حكم يجب في العقل وجوباً حتى لا يجوز خلافه، بإضافته إلى دلالة اللغة و جعله مشروطاً فيها محال لأن اللغة تجري مجرى العلامات و السمات، و لا معنى للعلامة و السمة حتى يحتمل الشيء ما حُملت العلامة دليلاً عليه و خلافه)^٣.

ومن ناحية أخرى يتمثل دور العقل من خلال تفرده بالتحكم في نسيج النظام اللغوي ذاته، اعتماداً على شبكة العلاقات الموضوعية في هذا النظام و هذا ما أكده الجرجاني في أثناء إثباته نظرية

١ مصطفى مندور اللغة بين العقل و المغامرة ص ٩٩-١٠٠.

٢ المصدر السابق ص ١٠٠.

٣ عبد القاهر الجرجاني اسرار البلاغة ص ٣٤٧.

النظم و العلاقات السياقية فهو لا يزال في كل فرصة في كتابيه يؤكد أن العقل هو الذي يقضي الأحكام اللغوية و يبينها.

ففي سياق حديثة عن المجاز يبرهن على أن اللغة قائمة على المواضع، يقول: (فإذا قلنا مثلاً: "خطُّ أحسنُ مما وشاه الربيع"، كنا قد ادعينا في ظاهر اللفظ أن للربيع فعلاً أو صنْعاً، وأنه شارك الحي القادر في صحة الفعل منه وذلك تجوز من حيث المعقول لا من حيث اللغة لأنه إن قلنا إنه مجاز من حيث اللغة، صرنا كأننا نقول: إن اللغة هي التي أوجبت أن يختص الفعل بالحي القادر دون الجماد و أمَّا لو حكمت بأن الجماد يصح منه الفعل و الصنع... لكان ما هو مجاز الآن حقيقة، ولعاد ما هو الآن مُتأوِّلاً معدوداً فيما هو حق محصل وذلك محال... وإنما وزان ذلك، وزان أشكال الخط التي جعلت إماراتٍ لأجراس الحروف المسموعة، في أنه لا يُتصور أن يكون العقل أقتضى اختصاص كل شكل منها بما اختص به، دون أن يكون ذلك لاصطلاحٍ وَقَعَ و تواضعٍ أُتفقَ و لو كان كذلك لم تختلف المواضع في الألفاظ والخطوط و لكانت اللغات واحدة كما وجب في عقل كل عاقل^١.

في هذا النص نجد أن الجرجاني أثار قضية هامة من قضايا اللغة و الدلالة، وهي علاقة المعاني بعضها ببعض، مما أوصله إلى جوهر النظم أو التأليف، وهو هنا يضع الحكم الفصل في علاقة اللغة بالعقل، ويكون بذلك قد أحاب عن إشكالية وقف عندها الدارسون، وهي: هل الألفاظ موضوعة بإزاء الصور الذهنية، أم بإزاء الماهيات الخارجية؟ وبذلك استطاع أن يبلور الحكم النهائي في هذه القضية الخلافية مؤيداً رأيه بالأدلة، والبراهين المدعمة بالعقل و المنطق.

و لم يقف الجرجاني عند هذا الحد من تمثل عملية المواضع اللغوية، بل إنه تخطى هذه المرحلة للبحث في التحول من المواضع التعسفية للغة إلى المرحلة الثانية، وهي مرحلة التلازم الطبيعي بين الدال و مدلوله، وهي العلاقة التي كانت قائمة على اعتبارية هذا التلازم وهنا يبرز دور العقل حين يعمل على إحكام هذه الصلة^٢، إذ رأى أن المتكلم حين يؤلف كلامه يجعل العقل حكماً، فليس شيء من الكلام يخرج عن عمل العقل إلا دلالة الألفاظ بالوضع، يقول الجرجاني: (وهكذا "يُضربُ زيدٌ" لا يكون أمراً لزيد باللغة، ولا "اضرب" أمراً للرجل الذي تخاطبه، وتقبل عليه من بين كل من يصح خطابه باللغة، بل بك أيها المتكلم فالذي يعود إلى واضع اللغة أن "ضَرَبَ" لإثبات الضرب وليس لإثبات الخروج، وأنه لإثباته في زمان ماض وليس لإثباته في زمان مستقبل، فأما تعيين من يثبت له فيتعلق بمن

١ عبد القاهر الجرجاني أسرار البلاغة ص ٣٧٧-٣٧٨.

٢ عبد السلام المسدي التفكير اللساني في الحضارة العربية ص ٣١٠.

أراد ذلك من المخبرين بالأمور، والمعبرين عن ودائع الصدور... بحسب ما تأذن به العقول، وترسمه، أو معدولاً بها عن مراسمها نظماً لها في سلك التخيل، وسلوكاً بها في مذهب التأويل^١ هذا يقودنا إلى مناقشة مفهوم آخر، وهو التحول الدلالي، الذي يُعد أساساً من أسس التفكير اللغوي عند عبد القاهر.

٤ - التحول الدلالي

تمثل ظاهرة التحول الدلالي في ما يسمى (المجاز)، وهو أن يجوز المتكلم بالكلمة من معناها الوضعي إلى معنى آخر شرط أن يكون بين المعنى الأول والثاني مناسبة أو علاقة تسوغ علمية التحويل الدلالي.

وهذه الظاهرة تمثل في تحركها ضمن نسيج الأبنية الكلامية مرحلة ثانية من المواضع فهي خروج على المواضع الأولى إلى مواضع ثانية لكنها ليست دائمة أو مُلزِمة، ومع ذلك فهي تعدّ من أهم العمليات اللغوية التي تغذي اللغة و تبت فيها روحاً جديدة تضمن حيويتها ونموها إنها تشكّل جديد ومخاض دائم مستمر وهذا ما دفع ابن جني ليقول: (أعلم أن أكثر اللغة مع تأمله مجاز لا حقيقة)^٢ يأتي المجاز ليخرق المواضع بمواضع أخرى، ولكنها مشروطة، إذ يكون التحول الدلالي مرتكزاً على علاقة منطقية تربط بين الدلالة الوضعية الأولى (الدائمة) و الدلالة الوضعية الجديدة (العرضية)، وهذا قائم على أساس أن الدلالة الوضعية الأولى هي تعليق دال بمدلول من غير أي اضطراب، أو علاقة طبيعية بينهما لذا كانت العلاقة بين الدال المجازي و مدلوله هي أيضاً علاقة اعتبارية تحدث في صلب اعتبار أول، لكنها علاقة أمتن لما تحمله من تلازم منطقي شفاف بين الدلالة الأولى و الدلالة الثانية^٣.

وقف الجرجاني عند هذه القضية وقفة التأمل، الذي ينتظر إلى خفايا الظاهرة بنظر ثاقب و من ثم تناولها بدقة علمية فلم يترك أي بُعد من أبعادها من غير أن يخضعه للفحص المجري الدقيق، ففي تعريفه للحقيقة يشير صراحة إلى فاعلية المواضع في اللغة، فهو يرى أنها (كل كلمة أريد بها ما وقعت له في وضع واضح - و إن شئت قلت في مواضع - وقوعاً لا تستند فيه إلى غيره)^٤.

١ - عبد القاهر الجرجاني اسرار البلاغة ص ٣٧٦ - ٣٧٧.

٢ - ابن جني الخصائص ص ٤٤٧.

٣ - التفكير اللساني في الحضارة العربية ص ١٩٨.

٤ عبد القاهر الجرجاني اسرار البلاغة ص ٣٢٤.

ويتضح موقفه من المواضع: عندما شرح عبارته مشيراً إلى أنه جاء بعبارة "وضع واضع" على التنكير و لم يقل "في وضع الواضع الذي ابتدأ اللغة" أو "في المواضع اللغوية" حتى لا يتوهم السامع أن (الأعلام أو غيرها مما تأخر وضعه عن أصل اللغة يخرج عنه)'.^١

ولما كانت اللغة تقوم على مبدأ المواضع والاتفاق، فإن العلاقة بين اللغة والعقل إنما تقوم على تنزيل الأدلة عن طريق المقارنة بين الدال والمدلول، لتعقد بينهما نوعاً من العلاقة العقلانية، وهذا يقود إلى أن تحديد معنى الكلام يكون بدلالة القرائن، وهذا بدوره يعني أن العقل هو الذي يذيب الحواجز بين الدال والمدلول، أي أن اقتران اللغة عن طريق المواضع تصل إلى حدّ التلازم والانصهار، صحيح أن العقل لا يستطيع الربط المباشر بين الدال والمدلول، بمعنى أن يكون الدال صورة مطابقة للمدلول، إلا أن العقل ينفرد بالتحكم داخل النظام اللغوي عندما يتعرف على شبكة العلاقات القائمة في مواضعها الأولية^٢، فيستنبط علاقات آنية جديدة لا تخضع كلياً للمواضع الأولية؛ بل تخرج على قوانينها من غير أن تقطع الصلة بما نمائياً، لأنها تبقى بعض ملامح المواضع الأولية، لتضفي على هذا الخروج نوعاً من الشرعية التي يقبلها العقل، يقول الجرجاني: (ومما يجب ضبطه في هذا الباب أن كل حكم يجب في العقل وجوباً حتى لا يجوز خلافه، وإضافته إلى دلالة اللغة، وجعله مشروطاً فيها محال، لأن اللغة تجري بجرى العلامات والسمات، ولا معنى للعلامة والسمة حتى يحتل الشيء ما حملت العلامة دليلاً عليه)^٣.

و من خلال تناوله قضية النظم و العلاقات السياقية، توصل الجرجاني إلى تأكيد دور المتكلم في عملية التحول الدلالي و في التصرف في أسبابها مبيناً عمل المبدع، ولا سيما في إخضاع اللغة لإبداعه الفني وفق أغراضه ومقاصده إذ يمارس عليها فعل التصرف بمدلولاتها، وهو يعلم أن المتلقي سيتقبل هذه التحولات الدلالية الجديدة، وهو في حالة استرسال مع الأجواء الخيالية والوجدانية والمعنوية للعمل الفني، وإذا كانت القواعد اللغوية و البلاغية تحدّ بعضاً من هذا التصرف، إلا أن ما تضمنته كتب الأخبار و النقد من أخبار المبدعين، تؤكد استمرار عملية التصرف الإبداعي في اللغة على مر العصور وتؤكد الجانب الاعباطي المشروط، من خلال ما يسمى المجاز خاصة.

هذه الفكرة كانت واضحة في ذهن عبد القاهر الجرجاني إذ راح يؤكّد، في أثناء تناوله للمجاز والاستعارة خاصة، أنها قائمة على الادعاء وليس على النقل كما قرر العلماء قبله، يقول: (وإذا ثبت

١ المصدر السابق ص ٣٢٥.

٢ التفكير اللساني في الحضارة العربية ص ٢٠١.

٣ عبد القاهر الجرجاني اسرار البلاغة ص ٣٤٧.

أما ادعاء معنى الاسم للشيء، علمت أن الذي قالوه من أنها تعليق للعبارة على غير ما وضعت له في اللغة، و نقل لها عما وضعت له كلام قد تسامحوا فيه، لأنه إذا كانت الاستعارة ادعاء معنى الاسم، لم يكن الاسم مزالاً عما وضع له؛ بل مقراً عليه^١.

هذا النص يدل على ارتقاء الجرجاني بفكرة المواضعة المجازية، إذ تبقى هناك علاقات تربط الدلالة الجديدة للاسم المزال عما وضع له أصلاً بدلالته القديمة، لكنها ليست روابط دائمة، بل إن العملية هي من قبيل التداخل بين الأشياء، إنها ادعاء مشروط و لهذا نجد الجرجاني يؤكد ضرورة التناسب بين الدالتين، وهذا يعني أن حركة التحول الدلالي تقوم على الربط المنطقي بين الدالتين تخضعان لمبدأ المواضعة، الأولى منهما هي الدلالة المعجمية الدائمة، والثانية هي الدلالة المجازية العرضية.

وهنا نلاحظ ارتباط التحول الدلالي عند الجرجاني بالعقل ولكن من جانب آخر في هذه المرة، فقد استطاع بفكره النافذ أن يبلور هذا الجانب، ويرزه من خلال تركيزه على فكرة النظم والعلاقات السياقية إذ يقرر أنه لا يمكن للتحول الدلالي أن يتم في الألفاظ المفردة، ولا بد له من سياق لغوي أو حالي يكون فيه مقترناً بما يسمى القرينة اللغوية أو الحالية، وهذه القرينة هي التي تحد من اعتباطية المجاز، يقول الجرجاني: (كذلك علمت أن لا سبيل إلى الحكم بأن ههنا مجازاً، أو حقيقةً من طريق العقل إلا في جملة من الكلام... فكما يستحيل وصف الكلم المفردة بالصدق و الكذب،... كذلك يستحيل أن يكون ههنا حكم بالمجاز أو الحقيقة، وأنت تنحو نحو العقل، إلا في الجملة المفيدة فاعرفه أصلاً كبيراً^٢).

و يُخرج الجرجاني القضية من سياقها العربي ليجعلها ظاهرة لسانية عالمية تشمل جميع اللغات الإنسانية لأنها تمثل نشاطاً عقلياً يستقطب كل اللغات^٣ يقول: (و إنما اشترطت هذا كله لأن وصف اللغة بأنها حقيقة أو مجاز حكم فيها من حيث أن لها دلالة على الجملة، لا من حيث هي عربية، أو فارسية، أو سابقة في الوضع، أو محدثة، أو مولدة، فمن حق الحدّ أن يكون بحيث يجري في جميع الألفاظ الدالة و نظير هذا نظير أن تضع حداً للاسم و الصفة في أنك تضعه بحيث لو اعتبرت به لغة

١ عبد القاهر الجرجاني دلائل الإعجاز ص ٢٩٦.

٢ عبد القاهر الجرجاني اسرار البلاغة ص ٣٨٢ - ٣٨٣.

٣ التفكير اللساني في الحضارة العربية ص ٢٠١.

غير لغة العرب، وجدته يجري فيها جريانه فى العربية لأنك تحدّ من جهة لا اختصاص لها بلغة دون لغة^١

الخاتمة

وهكذا يمكننا القول إن الجرجاني كان عالماً لغوياً قبل أن يكون عالماً بلاغياً، فهو لم يكتفِ بالوقوف عند حدود الظاهرة اللغوية البلاغية؛ بل كان يتناولها بروية وعمق، ويتوغل فى خباياها ليصل إلى الرؤية السليمة، والفهم الثاقب، وهذا ما جعله يدرك آلية الحركة اللغوية فى مستوياتها المختلفة إدراكاً صحيحاً ودقيقاً، وبذلك اتجه بدراساته البلاغية الوجهة السليمة، التي أثبتت صحتها على مرّ العصور، من هنا كان لابد من أن يكون ثمة تواصل بين كل مستويات الدرس اللغوي والفني من جهة، وبين نظرية النظم والعلاقات السياقية، لأنها الأساس فى تطوير اللغة لتساير تطور حركة الحياة.

المصادر والمراجع

- ١- ابن جني أبو الفتح عثمان الخصائص تحقيق محمد علي النجار ط ٢ بيروت: دار الهدى للطباعة والنشر.
- ٢- الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر الحيوان تحقيق وشرح عبد السلام هارون ط ١ مكتبة الحلبي.
- ٣- الجرجاني عبد القاهر أسرار البلاغة تحقيق هـ. ريتير ط ٣ بيروت: دار المسيرة ١٩٨٣م.
- ٤- الجرجاني عبد القاهر دلائل الإعجاز تحقيق محمد رضوان الداية وفايز الداية ط ١ دمشق: دار قتيبة ١٩٨٣م.
- ٥- حسان تمام الأصول ط ١ الدار البيضاء: دار الثقافة ١٩٨١م.
- ٦- حسان تمام اللغة العربية معناها ومبناها الدار البيضاء دار الثقافة.
- ٧- حميدة مصطفى نظام الارتباط والربط فى تركيب الجملة العربية ط ١ القاهرة: الشركة المصرية العالمية للنشر ١٩٩٧م.
- ٨- الراجحي عبده فقه اللغة فى الكتب العربية بيروت: دار النهضة العربية ١٩٧٩م.
- ٩- زكريا ميشال الألسنية مبادئها وأعلامها بيروت ١٩٨٠م.
- ١٠- زهران البدر اوي عالم اللغة عبد القاهر الجرجاني ط ٣ القاهرة: دار المعارف ١٩٨٦م.

- ١١ - عبد المطلب محمد البلاغة العربية قراءة أخرى ط١ القاهرة: الشركة المصرية العالمية للنشر
١٩٩٧م.
- ١٢ - عبد المطلب محمد البلاغة والأسلوبية الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤.
- ١٣ - علوية نعيم نحو الصوت ونحو المعنى ط١ الدار البيضاء المركز الثقافي العربي ١٩٩٢م.
- ١٤ - فنديس اللغة ترجمة عبد الحميد الدواخلي و محمد القصاص القاهرة: الأنجلو مصرية
١٩٥٠م.
- ١٥ - مذكور عاطف علم اللغة بين القديم والحديث، مديرية الكتب والمطبوعات، جامعة
حلب ١٩٨٧.
- ١٦ - المسدي عبد السلام التفكير اللساني في الحضارة العربية تونس: الدار العربية للكتاب
١٩٨١م.
- ١٧ - مندور مصطفى اللغة بين العقل والمغامرة القاهرة: منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٧٤م.
- ١٨ - موان جورج تاريخ علم اللغة منذ نشأتها حتى القرن العشرين ترجمة بدر الدين القاسم مطبعة
جامعة دمشق ١٩٧٢م.
- ١٩ - وافي علي عبد الواحد نشأة اللغة عند الإنسان والطفل القاهرة: مطبعة العالم العربي ١٩٧١م.